الطـــلاب

● **إجلال العلم فى الإسلام :**

بين الكثير من الجمل التى انتقلت إلينا من عصر إلى عصر فى مدح وإطراء المعرفة ، تجىء الأحاديث النبوية فى المقدمة ، يقول ﷺ والسلام فى جملة من أحاديثه : « **لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة** » و « **باب من العلم يتعلمه الرجل خير من الدنيا وما فيها** » وفى حديث أبى ذر رضى الله عنه : « **حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وعيادة ألف مريض ، وشهود ألف جنازة . فقيل يا رسول الله : ومن قراءة القرآن ؟ فقال : وهل ينفع القرآن إلا بالعلم** » . وفى حديث آخر : « **إن الله وملائكته وأهل سماواته وأرضه ، حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت فى البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير** » و « **يستغفر للعالم ما فى السموات وما فى الأرض** » و« **العلماء ورثة الأنبياء** » ، وغيرها كثير مما أورده **الغزالى** فى كتابه **إحياء علوم الدين** » ، **فى باب فضيلة العلم ، واعتمدت فى نقلها على** ما ورد منها فى مختصر الإحياء الذى قام به العبيدى ، وهو مخطوط تملكه جمعية تشجيع الدراسات .

ورغم أن هذه الأفكار انتشرت عبر كل البلاد التى اعتنقت الإسلام لم يكن لها دور فعال فى بعث حب المعرفة ، والإقبال على الدرس ، لأن جذوة الحضارات القديمة فيها قد انطفأت ، وحل مكانها لون من شبه الهمجية ، يتجلى فى حب القبيلة أو الأسرة فحسب ، مما يحول بين المرء وبين الارتفاع اعتمادا على مواهبه وحدها ، وعلى قيمة شخصه . وكان الأمر على النقيض فى إسبانيا ، ذلك أن ذبالة من تأثير الحضارات الإغريقية والرومانية والمسيحية ظلت مضيئة ، كما أن تجاور عناصر مختلفة ومتعددة واختلاطها أتى سريعا على ذكريات الأسرة والقبيلة والجنس ، واصبح الرجال من أى عنصر كانوا أو إلى طبقة انتموا ، يجدون التقدير طبقًا لما يتمتعون به من مواهب شخصية ، وأدى ذلك إلى إشاعة الرغبة فى الدرس ، وحب الناس للثقافة ، ولم يقتصر الأمر على العلوم ذات الطابع الفقهى الخالص ، وتجىء فى القمة تقديرا وإقبالا ، وإنما شمل كل فروع المعرفة الأخرى .

نعم ، كان الإحساس العنصرى متمكنا فى النفوس خلال أيام الإسلام على أرض إسبانيا ، فأصبحت مناصب الدولة الهامة وقفا على رءساء القبائل الكبرى ، ولكن عندما جاء الأمويون إلى هنا وجدوا أنفسهم فى حاجة لأن يعتمدوا بالتناوب على البربر آونة ، وعلى العرب أخرى ، وأن يجذبوا إليهم بقية الشعب من أهل الذمة مسيحيين ويهودا . وتجاوزوا حتى من حولهم فاستجلبوا لأنفسهم أعدادا هائلة من أوربا رقيقًا ، يقومون على حراستهم وخدمتهم الشخصية ، ولم يقصروا ثقتهم على طائفة بعينها ، أو على أفراد معينين لا يتجاوزونهم ، وأى إنسان يمكن أن يصبح موضع التقدير ، إلى أى عنصر انتهى ، ما دامت تؤهله لذلك صفاته ومواهبه ، فالمقاتل للحرب ، والعالم للسلام ، وساد الأمن وعم الهدوء ، وبسط ظلاله على كل الناس أواخر أيام الدولة الأموية ، وأدى ذلك إلى ازدهار التعليم ، وكان حتما على الجميع أن يتعلموا ، يستوى فى ذلك الشريف الذى ينتسب فى أعرق الأسر ، والعادى من غمار الناس ، الأول لكى يحتفظ بأمجاد أسرته ، والثانى كى يبلغ فى المجتمع مكانة رفيعة ، ومن ثم لا أحد يستطيع أن يتخلى عن هذا الواجب .

وهكذا رأينا بين أمراء الأسرة الأموية نفسها ، وبين ملوك الطوائف ومن بعدهم ، من تميزوا بحبهم للمعرفة ، وفاقوا غيرهم من رعاياهم ، وقدموا لنا مثلا قليل النظير بين الأمم ، فكان بين أمراء الأسر الملكية فى بطليوس ، وطليطلة ، وسرقسطة ، ودانية ، والمرية ، وإشبيلية ، وغيرها ، من وقفوا أنفسهم على دراسة العلم ، وفى وقت واحد تقريبا . [وكان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه ، فامتاز **المتوكل** صاحب **بطليوس** بالعلم الغزير ، وامتاز ابن ذى النون صاحب طيطلة بالبذخ البالغ ، وفاق **ابن رزين** صاحب **السهلة** أنداده فى الموسيقا ، واختص المقتدر **بن هود** صاحب سرقسطة بالعلوم ، وبز **ابن طاهر** صاحب **مرسية** أقرانه بالنثر الجميل المسجوع . أما الشعر فكان أمرًا مشتركا بينهم جميعًا ، يلقى منهم كل رعاية ، ولكن عناية **بنى عباد** أصحاب **إشبيلية** به كانت أعظم وأشمل] [1] .

يحكى أن **ابن حزم** ناظر **أبا الوليد الباجى** ، فقال هذا له : « أنا أعظم منك همة فى طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت معان عليه ، تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وأنا

(١) التفصيل زيادة منى . نقلا عن كتاب الشعر الأندلسى للمستشرق الإسبانى إيميليو غرسية غومث . « المترجم » .

أسهر بقنديل بائت السوق[1] ، فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت فى تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالى ، وأنا طلبته فى حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرج به إلا علو القدر العلمى فى الدنيا والآخرة ، فأفحمه »[2] .

هذا الحوار بين ابن حزم وابى الوليد الباجى صورة واضحة على أن التنافس فى العلم بين مختلف الطبقات فى إسبانيا الإسلامية لم يخطىء طريقه ، وبين من يقبل عليه تسلية ، ومن استغرق عليه حياته ، ظهر طرف ثالث يحصد ثمرة الخلاف ، والمشهد مثير : فبينما الحكام والسياسيون العرب يتناقشون حول قضايا الفكر والأدب ، أو يستحثون القوى الإفريقية العون والغوث فى قصائد أنيقة ، كان النصارى فى الشمال يواصلون الاستيلاء على المدن الإسلامية واحدة وراء أخرى ، لأن الأدب وسيلة رائعة ، ومناسبة تمامًا ، لكى يحمل فردًا أو شعبًا إلى محراب الشهرة ، ولكنه يعجز عن إنقاذ مدينة يطوقها محاصرون أحكموا تنظيما وتدريبًا .

كان المستقبل اللامع ، والوظيفة الجذابة ، تنتظر الشاب فى اللحظة التى يبدأ فيها تعلّم مبادىء الفقه والنحو والأدب ، ما دام يجتهد ويأخذ بأسباب الطلب ، فالطريق إلى الوظائف مفتوح أمام الناس جميعا ، ويستطيع أى فرد أن يحقق طموحه بالعمل ، كأن يصبح إماما فى مسجد ضيعته أو رئيس الوزراء فى أمته ، ونستطيع أن نذكر حالات عديدة لأفراد من أشد الأسر تواضعًا ، واصلوا سيرهم صعدا حتى أصبحوا رؤساء الدولة ، وبخاصة فى عصر الطوائف ، ولهذا يقول ابن خلدون : أى شخص فى الأندلس يعتقد أنه قادر على أن ينشىء دولة ، وأن يؤسس مملكة[3] .

يبدأ الشاب الدراسة العليا عندما تتاح له الفرصة ، وتكون لديه الرغبة فى الاستفادة من التعليم ، ثم تجىء الرحلة إلى المشرق ، يتجهون إليه بكل الوسائل ، ومن كل أطراف إسبانيا ، لكى يحضروا دروس أساتذته المشهورين ، الذين يتحدث عنهم كل الناس ، وتبلغ شهرتهم الخافقين فى سرعة لانكاد نصدقها الآن ، إذا أخذنا فى الحسبان صعوبة وسائل المواصلات فى ذلك الزمان ، ويستخدم المؤرخون عادة صيغًا معينة للإشارة على

(١) يريد أنه يسهر على قنديل الدراب ، وهو الحارس الليلى ، وسماه « بائت السوق » لأنه يبيت فيه للحراسة .

(٢) نفح الطيب ، جـ١ ص ٥١١ طبعة أوربا ، جـ ٢ ص ٧٧ طبعة إحسان عباس .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، الترجمة الفرنسية ، جـ ١ ص ٦٣ .

الأساتذة الذين يجذبون الطلاب إليهم فى المدن التى يقيمون فيها ، فيقولون عنهم : « وكانت الرحلة فى وقته إليه » أو « كثر الراحلون إليه »[1]

ومع كل هذا لا أعتقد أنهم كانوا يعفون من رسوم المرور ، أو تخفض لهم أجور الخانات والفنادق ، أولهم أى امتياز آخر مما تتضمنه القوانين الجامعية فى أوربا ، ويهدف إلى تشجيع الدراسة فى المؤسسات التربوية التى تقيمها الدولة ، مدنية أو ذات طابع دينى ، وإنما كان طالب الدراسات العليا شأنه شأن غيره ، كأى مواطن عادى ، دون أى تفضيل ، أو قانون خاص يميزه عن غيره .

ولكن العون الشخصى كان يلعب دورًا كبيرًا فى تشجيع الطلاب ومساعدتهم فى غالب الأحوال ، فثمة أتقياء كثيرون تعودوا أن يدفعوا نفقات الدراسة للمحتاجين من الطلاب المجتهدين ، [ويروى الضبى مثلا ، فى بغية الملتمس ، أن على بن محمد بن على بن هذيل فقيه فاضل ، زاهد مقرىء ، متقلل من الدنيا ، معظم عند أهلها ... وكان ورعا يخدم بيده ، ويعين الطالب المحتاج ، ولم يزل يقرئ كتاب الله وحديث رسوله إلى أن توفى فى سنة ٥٦٣هـ] [2] .

وكثيرون من الطلاب كانوا يمارسون مهنا أخرى يتعيشون منها ، فهم يعملون فى نسخ الكتب ، أو كتابة الرسائل والوثائق ، أو تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، أو الخدمة فى المساجد ، وغيرها ، فإذا وقف بهم الريح عندما هو ضرورى فحسب ، فمرد ذلك سوء الحظ وحده ، لأن أبا حيان النحوى الإسبانى يقول : « يكفى الفقير فى مصر أربعة أفلس : يشترى له بائتة بفلسين ، وبفلس زبيبا ، وبفلس كوز ماء ، ويشترى ثانى يوم ليمونا بفلس يأكل به الخبز »[3] . هذا إذا لم يجد أستاذا كابن كوثر الطليطلى الذى أشرنا إليه من قبل ، يعلم طلابه ويقوم بالإنفاق عليهم .

ولم تكن هناك مجموعة معينة من المواد ، ولا وقتا محددا لبدء العام الدراسى أو انتهائه ، فهو يبدأ حين يفتتح الأستاذ درسه ، ويأخذ فى تعليم طلابه ، ويستمر حتى يستوعب

---

(١) الصلة لابن بشكوال ، الترجمة ١١٢٣ ، والتكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٨٦٣ ، طبعة مدريد .

(٢) الضبى ، بغية الملتمس ، الترجمة رقم ١٢٠٠ .

(٣) نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٥٤٣ طبعة إحسان عباس .

هؤلاء مادته ، الصيف والشتاء فى ذلك سيان ، كل ساعات النهار صالحة للبدء والاستمرار ، ويحدد الأستاذ وطلابه وقته فى حرية كاملة .

أما الإجازة السنوية على النحو الذى نعرفه الآن فكانت مجهولة تماما ، ومن المؤكد أن أيا منهم لم يكن بوسعه أن يتخيل أن يوما سوف يجيء وتوقف فيه الدراسة قرابة مائتى يوم فى العام .

وكان من المعتاد والشائع أن يقوم بتدريس المادة الواحدة نفسها أكثر من أستاذ ، وهى طريقة أثنى عليها ابن خلدون ، لأنها تعود الطلاب أن يميزوا بين ما هو جوهرى وما هو عارض فى العلوم[1] .

وعدد السنوات التى تحتاجها الشهادة ، متروك لاختيار الطالب والوسائل المتاحة له ، وقدراته الذهنية ، وإقباله على الدرس . ويمكن أن نستنتج من جملة لابن خلدون أن الحد الأدنى لها فى إسبانيا ، والمقاطعات التى تحذو حذوها ، كان يتراوح بين خمس سنوات كحد أدنى ، وخمسة عشر عاما كحد أقصى فى المغرب حيث التقاليد ومناهج التعليم سيئة . ومع ذلك كان هناك أفراد أمضوا حياتهم كلها بين قاعات الدرس ، طلبا لثواب الله ومرضاته .

وبعد أن يكمل الطلاب دراستهم فى شبه الجزيرة يذهب الكثيرون منهم إلى المشرق ، ويظلون هناك عامين أو ثلاثة ، أو حتى عشرة أو أكثر لكى يتعمقوا فى دراساتهم ، ويصححوا معارفهم .

وقد أدى طابع المدارس ، وهى خاصة ، والتنافس بينها ، وهو قائم وقوى ، إلى فقدان الشعور بروح الجماعة ، أو إشاعة روح الزمالة بين جمهرة الدارسين ، والذى يأخذ أحيانًا شكل مظاهر صاخبة فى الجامعات الأوربية . ومن المؤكد إنه تكن هناك اضطرابات مدرسية ، لأن الطلاب لم تكن تحكمهم لائحة خاصة ، ولأن جلهم ممن يدرسون الفقه وعلم الكلام ، وهم أناس طبائعهم هادئة ومعتدلة ، وأخيرا فلأنهم يحرصون جميعا على ألا يشعر الشعب بأن المساجد قد تحولت إلى ميدان فسيح لشيطنة الطلاب ، وكل ما نعرف فى هذا المجال أن مشاجرة واحدة وقعت بين عدد منهم فى جامع قرطبة ، وهم

(١) ابن خلدوم ، المقدمة ، الترجمة الفرنسية ، جـ ١ ص ٤٤٣ .

يسمعون درس وهب بن مسرة ، أورد لنا خبرها ابن بشكوال ، ولم تدم أكثر من الوقت الذى سمح بوصول حرس المسجد ، ولوح بالدرة بين من كانوا السبب ، وليس لها من الأهمية إلا أنها ألهمت ابن هذيل الشاعر ، وشهد الواقعة ، أبياتا من الشعر ثالها على البديهة :

إن وَهْبَ بن مَسـرّة بين أهـل العلم دُرّه

كان فى مجلسه اليو مَ على العَلـم مَعرّه

إذ عـلا القيّمُ رأ سَ البثرلى بـدرّه[1]

وعندما ينهى الطلاب الدراسة ، ويعودون إلى الأرض التى شهدت مجيئهم إلى الحياة ، ينوءون بالشهادات والكتب والمذكرات ، حيث ينتظرهم مواطنوهم فرحين بهم ، وبخاصة فى القرى الصغيرة ، ويخرجون لاستقبالهم وتهنئتهم[2] . ولكن الحظ لا يحالف الجميع دائمًا ، فهناك على الرغم مما قلنا من لا يستقبلهم أحد على الإطلاق ، فيدفع بهم الإهمال الذى تعرضوا له إلى مقت العالم وكراهيته ، وكان الأمل فى أمجاده وراء جدهم ، وحرصهم على الدرس والتحصيل ، ومع الإحساس المرير بخيبة الأمل ينسحبون من الحياة تدريجا ، ويقفون أنفسهم على خدمة الله وحده ، وهو يقدر كل فضيلة قدرها .

[يروى الضبى فى كتابه بغية الملتمس ، أن أحمد بن عبد الملك بن عميرة ، ابن عم أبيه ، من أهل لورقة ، كان عالما عاملا زاهدًا فاضلا ، متقللا من الدنيا ، درس فى مرسية ، ورحل إلى قرطبة ، وفيها قرأ على ابن رشد وغيره وانصرف إلى مالقة وسمع علماءها ، وعندما عزم العودة إلى مسقط رأسه كتب إلى من فيها كى يلقـوه ، يقول : « فلما وصلت لم يلقنى أحد ، ولا رأيت من الناس ما عهدت ، فكان لى فى ذلك موعظة ، ورجعت إلى نفسى فقلت : يا أحمد ، فكأنك إنمـا رحلت فى طلب العلم ، وسهرت الليل ليعظمك الناس ، لقد خبت وضل سعيك ، فعكفت على ما ينفعنى ، ولزمت بيتى ، ولم أتعرض لغرض دنياوى ، وسلكت سـبل القوم لعل الله أن يجعلنى

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٢٦ طبعة مصر .

● البثرلى أحد الطلبة الذين اشتركوا فى المشاجرة . « المترجم » .

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٨٧ ، طبعة مدريد .

منهم ، ويكتبهم انتفعت » . وكان رحمه الله إماما فى طريقة التصوف ، وكنت لا تراه من الليل إلا قائما ، وكان أكثر دهره صائمًا ، توفى وقد أناف على التسعين] [1] .

(١) اكتفى المؤلف بإحالتنا على المصدر ، وجئت بالنص فى شىء من التصرف ، لأهميته فى تصوير إحساس الطالب بخيبة الأمل ، حين لايجد ممن حوله تقديرًا . الضبى ، البغية الترجمة ٤٤١ . طبعة مدريد . « المترجم » .